

الدور السياسي والعسكري للطرق الصوفية في الجزائر خلال العهد العثماني (16م - 19م)

د. عبد القادر صحراوي
جامعة سيدي بلعباس

يحتل التصوف مكانة أساسية في تاريخ الإسلام والمجتمعات الإسلامية، ويعتبر ظاهرة إسلامية أصيلة، بنيت على التقوى واستهدفت تنمية القيم الروحية. وإنّ التصوف ككلّ حركة دينية استمد عناصره، ونشأ وتطور في ظل التطورات الشاملة التي مرّ بها تاريخ المسلمين في القرون الثلاثة الأولى للهجرة، وكان نتيجة مباشرة له. وأصبح مذهباً منظماً أثناء الجزء الأخير من القرن الثالث الهجري، وصار للصوفية أساندة وتلاميذ وقواعد للسلوك. ولكنهم بذلوا ما في وسعهم من جهد للتوفيق بين تصوفهم وبين القرآن والسنة اللذين اتخذهما أساساً لجميع أقوالهم وأفعالهم. ومن ثمّ فإذا نظرنا إلى الظروف التاريخية التي أحاطت بنشأة التصوف بمعناه الدقيق، أدركنا أنّه خرج من رحم الدين الإسلامي، ثم انتشر بين الأقطار الإسلامية خلال الفترتين الوسيطة والحديثة. وتعد الجزائر أحد هذه الأقطار التي هيمنت فيها الالتزامات الصوفية خلال الفترة الممتدة ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر، وهي فترة غنية بالأحداث والتطورات التاريخية.

1 - الطرق الصوفية الرئيسية في المشرق والمغرب الإسلامي

يصعب وضع إحصاء دقيق للطرق الصوفية مشرقاً ومغرباً، ويعتبر المهجوري المتوفى في 465هـ/ 1072م أول من كتب عن الطرق الصوفية التي قسمها إلى اثني عشر أو أكثر، ويكفي أن نذكر مصر التي تجاوز عدد الطرق بها اثنتين وسبعين طريقاً صوفياً، وأحصى لوي رين "Rinn"⁽¹⁾ الطرق الموجودة بالجزائر خلال القرن 19م، ونفس الشيء قام به بروسلا "Brosslard"⁽²⁾، مع العلم أن هناك طرق أصلية وأخرى فرعية. وهكذا انتشرت الخلوتية بمصر وتركيا الأوروبية، والنقشبندية بتركيا وبعض مناطق الشرق الأقصى، وميزت السهروردية بلاد فارس، في حين ظهرت الشاذلية في بلاد المغرب، وعمت القادرية كل العالم الإسلامي، وخاصة بالمغرب التي ظهرت بها الشاذلية أيضاً⁽³⁾. وتتميز الطرق الصوفية الأصلية والفرعية بمميزات تبدو وكأنها مختلفة عن بعضها البعض، فالقادرية تميل إلى التصديق، والخلواتية للعزلة، والبكداشية للتواضع، والدرقاوية للفقير، والطيبية لتعظيم أحفاد الرسول (ﷺ)، والتيجانية للتسامح⁽⁴⁾. وغالبا ما يقوم أتباع الطريقة بإطلاق اسم شيخهم على الطريقة الصوفية إذا اعتقدوا فيه

القطبية، وتشترك الطرق في مراسيم الاحتفال بانضمام الأفراد إلى الطرق، والاعتقاد بالخوارق التي تميز الشيخ وبعض المريدين مثل الإخبار بالغيبات وغيرها من الأمور التي يرفضها العقل والشرع الإسلامي.

2 - الطرق الصوفية في الجزائر:

نحاول تقديم جرد بسيط للطرق التي عرفتها الجزائر قبل القرن السادس عشر والتي استمرت إلى ما بعد القرن الثامن عشر ومن أهمها ما يلي:

- ✓ **الجنيدية:** تنسب إلى الإمام الجنيد وعنها تتفرع الشاذلية التي تعتبر الأكثر ارتباطا بها.
- ✓ **السهرودية:** يمثلها أبا نجيب ضياء السهروردي، ولكننا نشير إلى انعدام وجود أتباع لها بالجزائر، رغم أن الكثير من العلماء قد أخذوا عنها.⁽⁵⁾
- ✓ **القادرية:** يعتبر عبد القادر الجيلاني (471هـ-561هـ/1078م-1166م)⁽⁶⁾ ممثلها الرئيس، فهو الزاهد والواعظ والفقيه الكبير ومفتي بغداد التي توفي بها، وقد أخذ أصول طريقته عن الجنيد، وبرزت طريقته في القرن 6هـ/12م، ولعلها أول طريقة من حيث عدد المنتسبين إليها، وتتميز بالإصلاح والتوجيه الحسن والتسامح ونشر المعرفة والعلم⁽⁷⁾. وأحيطت الطريقة القادرية بتقديس كبير وصل إلى درجة الخرافية، وما فتئت تنتشر خلال الفترة التي يغطيها هذا البحث وما بعدها، وانتسب إليها الكثير من المريدين مثل عبد الكريم المغيلي في منطقة التوات، وأولاد سيدي الشيخ في جنوب غرب الجزائر، ومرابطون من مدن الجزائر، وقسنطينة، وبجاية، بل وصل تأثيرها إلى غاية مدينة فاس⁽⁸⁾، وتشتهر بالعديد من الأوراد كورد حزب الوسيلة وورد الجلالة⁽⁹⁾.

- ✓ **الشاذلية:** تنسب إلى أبي الحسب الشاذلي المدفون بصعيد مصر، وتتلذذ على يد أكبر أتباع سيدي أبي مدين الغوث وهو العلامة عبد السلام بن مشيش، وقد فضل الشاذلي الهجرة إلى المشرق، مخلفا وراءه عددا من الأتباع، ومال في تصوفه إلى الورع والزهد، إلا أن أتباع الشاذلية في الجزائر وغيرها لا ينكرون التمتع بنعم الحياة الدنيا، إتباعا لطريق شيخهم الذي دعا إلى تدريب النفس على فعل الخير، وإعادتها تدريجيا إلى الشريعة الإسلامية بواسطة الذكر الجماعي والفردية، فالشاذلية التي لم تسع إلى المال، لم ترفضه، ذلك أن الإحساس بالفقر أهم من الفقر كما جاء في أصولها⁽¹⁰⁾. هذه الأخيرة التي تركز على التقوى وإتباع السنة قولاً وفعلًا، والإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار، والرضى بالقسمة الربانية والرجوع إلى الله في السراء والضراء، وتقرب الشاذلية كثيرا من الجنيدية. وعرفت في بلاد المغرب بالمدينية نسبة إلى أبي مدين شعيب وهو الرابع عشر في سلسلتها، وبعد ذلك نسبت إلى الشاذلي وهو

السادس عشر اعترافا له بتفانيه في خدمتها. وانتشرت هذه الطريقة بشكل كبير بالمنطقة خلال القرن 9هـ/15م، وتفرعت إلى حوالي عشرين فرعا في المغرب، وثمانية فروع في مصر، وتميز كل فرع بسلسلته وقطبه، ومما ساهم في انتشارها في القرن 10هـ/16م رعاية الجازولين لها، ونشير إلى امتدادها إلى بعض الحواضر والمناطق في بلاد المغرب كتلمسان والريف والسوس⁽¹¹⁾.

✓ **الصدقية:** تنسب إلى أبي بكر الصديق، وإن كانت غير معروفة بالجزائر، فإن أبا بكر هو الجد المباشر لسيدي الشيخ الذي ترد إليه القبيلة المتمركزة بالجنوب الغربي، والتي امتد نفوذها السياسي والديني إلى كل الصحراء الجزائرية وتافيلالت بالمغرب، ويعتبر سيدي معمر بن سليمان المتوفى في 832هـ/1420م أول من رفعت له قبة في الجزائر⁽¹²⁾.

✓ **النقشبندية:** ارتبطت بالشاذلية والقادرية مع نهاية القرن 14م⁽¹³⁾.

✓ **الخلواتية:** يمثل هذه الطريقة السورية الأصل الزاهد إبراهيم الخلاقي، وتعد الطريقة الأم للرحمانية بالجزائر والحفناوية بمصر⁽¹⁴⁾.

✓ **العروسية:** نسبت إلى ابن عروس المتوفى في 868هـ/1463م، وقد درس التصوف بتونس ومراكش، وعند عودته إلى تونس عاش زاهدا، ولكنه قام بأعمال غريبة جلبت له عداوة الفقهاء، رغم عطف الحفصيين عليه، وإثر وفاته رفع أتباعه مرتبته إلى سيدي محرز حامي تونس لمدة خمسة قرون، ولم تظهر العروسية إلا في القرن 10هـ/16م عندما كثر الأولياء في بلاد المغرب⁽¹⁵⁾.

✓ **الجازولية:** أسسها ابن عبد الله محمد الجازولي بالمغرب الأقصى، الذي سعى إلى إيجاد زوايا للطريقة على طول المنطقة الممتدة من تلمسان إلى السوس، وانضم إلى الطريقة ما بين اثني عشر وثلاثة عشر ألف مريد، الأمر الذي أثر على حاكم مدينة آسفي مقر إقامة الجازولي، هذا الأخير قتل مسموما في 870هـ/1465م، وتعتبر الطريقة الجازولية فرع من فروع الشاذلية والتي ساهمت في نشرها في كل بلاد المغرب خلال القرن 10هـ/16م وما بعده⁽¹⁶⁾.

✓ **الزروقية:** يعد أبو الفضل شهاب الدين أبو العباس المعروف بأحمد زروق البرنوسي، المتوفى في 899هـ/1493م، وهو يحتل الرقم عشرين في سلسلة مؤسسي هذه الطريقة. وتعتبر الزروقية فرع من فروع الشاذلية، ولكنها جمعت بينها وبين القادرية، وظل زروق يحرص دائما على عدم تعارض الطريقة مع الشريعة ونقائنها، ويرى أن التصوف فردي يميز الخاصة الواعية. وعد أحمد الملياني أحد مريديها، وانتشرت في المغرب والجزائر وطرابلس في القرن 10هـ/16م⁽¹⁷⁾.

✓ الشاذلية: يعود أصل الطريقة إلى الشاذلية والصبيحة وهي بلدة قريبة من مدينة المهديّة بتونس، وعرف عرب دريد بتلاميذ الشاذلية. وتضم القبيلة التي تحمل نفس الاسم مجموعة من الزهاد، أسسوا فيها دولة صوفية عاصمتها القيروان. أما الطريقة الشاذلية فنسبت إلى أحمد بن مخلوف الشاذلي المتوفى في 898هـ/1492م بتونس، وخلفه ابنه محمد المتوفى في 900هـ/1495م، ثم ابنه سيدي عرفة المتوفى في 949هـ/1542م وهو مؤسس الدولة الشاذلية في سنة 942هـ/1535م في القيروان في النصف الأول من القرن 10هـ/16م⁽¹⁸⁾. وتقوم الطريقة الشاذلية على ثلاثة أسس هي علم الشريعة أي التصوف المقيد بالكتاب والسنة، والأخلاق الصوفية، وعلم التوحيد الذي يقتضي معرفة العبد لربه وتوحيده من أجل معرفة الآخرة، وانتشرت الطريقة خلال القرن 16م في الشرق الجزائري وانضوى تحت رايتها قبائل الحنانشة والنامشة الذين سيطر بفضلهم سيدي عرفة على مدينتي قسنطينة، وتبسة، ومنطقتي الأوراس والزيان. ويمكننا القول أنها انتشرت بين البربر المقيمين بين سهل مجرده ومدينة قسنطينة في الشمال، ومدينة توزر التونسية والأوراس في الجنوب. واعتبرت من أغنى الحركات الصوفية نظرا لملكيتها الواحات والقرى والعقارات، كل ذلك سمح لها بإقامة دولة وتكوين جيش قوي.⁽¹⁹⁾

✓ البكرية: ظهرت في سنة 909هـ/1503م على يد سيدي محمد أبو بكر وهو تلميذ زروق، وعدت فرعاً من فروع الشاذلية.

✓ الراشدية - الزروقية: برزت في سنة 931هـ/1524م وتمثل الفرع الجنوبي للشاذلية الراشدية.

✓ اليوسفية أو الراشدية: ظهرت في نفس الفترة، ونسبت إلى أحمد بن يوسف الملياني الراشدي، الذي يعد من الشخصيات المرباطية، وهذه الطريقة فرع ثانوي ومحلي للشاذلية. وعلى الرغم من انتسابها إلى الملياني، إلا أن الذي جاء بها رجل صلب أصحاب الملياني وهو أحمد بن عبد الله المنزولي الذي قال بنبوة الملياني⁽²⁰⁾. ورغم ظهور الطريقة في حياة الشيخ إلا أنه لم يوافق أتباعه على هذا الأمر واعتبر ذلك طائفة مبتدعة، وقال: "من قال عنا ما لم نقل يبتليه الله بالعلّة والقلة والموت على غير ملة."⁽²¹⁾

✓ العيساوية أو العيساوية: تنسب إلى محمد بن عيسى وظهرت في حوالي 930هـ/1525م وتعد فرعاً من فروع الجازولية، إلا أن هذه الطريقة لم تأت بشيء جديد في مجال التصوف، اللهم إلا إذا استثنينا بعض الصلوات على الرسول (ص) ومجلس الأربعين صالحاً بمكناس.⁽²²⁾

✓ السّوحالية: برزت في حوالي 936هـ/1530م، ونسبت إلى الشريف محمد بن عبد الرحمن السوحالي وهو تلميذ الملياني، ويتبع أفراد الطريقة طقوس الشاذلية.

✓ البكاية: نسبت إلى عمر بن أحمد البكاي بتومبوكتو المالية في حوالي 960هـ/1553م، وارتبطت بالشاذلية، ووجدت أيضا بالشرق والجنوب الجزائري. وتلى هذه الطرق ظهور طرق أخرى مهمة وأخرى أقل أهمية نذكرها فيما يأتي على أن نتعرض للبعض منها لاحقا في هذا البحث، وتضم الأحمدية أو الكرزاوية وظهرت في 1019هـ/1610م والشيخية في 1024هـ/1615م، والناصرية في 1070هـ/1669م، والطيبية في 1079هـ/1678م⁽²³⁾. وهناك الطريقة الخنصالية في 1114هـ/1702م، والخضرية في 1125هـ/1713م، والزيرية في 1145هـ/1733م، والحبيبية في 1167هـ/1753م، والتيجانية في 1195هـ/1781م والرحمانية في 1208هـ/1793م، وظهرت طرق أخرى في القرنين المواليين⁽²⁴⁾. وهكذا نلاحظ أن الطرق الصوفية تداخلت في أصولها، وتشعبت في فروعها، إلا أنها تشابهت في طقوسها وتباينت في ميولها، وجمعها أصل واحد متمثل في الجنيدية التي أخذ عنها عبد القادر الجيلاني وبعده أبو الحسن الشاذلي.

3- عهد الإخوان والاحتكاك بالعثمانيين:

على إثر فشل إدعاء المرابطين للمعجزات، الذي يمكننا اعتباره نهاية مرحلة دويلات القبائل في الجزائر، ساهمت الظروف الجديدة في دعم نظام الإخوان الذي هيمن على الوضع العام، وشكل خلفا استثنائيا لقيادة العقول والمجتمع. وعلى عكس الدويلات المرابطية التي ظهر فشلها السياسي في تجميع الناس خارج حدود جهة ما، وفشلها أيضا في جمع القبائل، فإن الأنظمة الإخوانية المنتشرة والمجموعة للناس، ضاعفت توسعاتها الروحية، ورفعت عدد المتسبين إليها من أجل رص صفوفها وضمان التماسك الاجتماعي. ويشكل هذا الأمر بداية مرحلة جديدة للتعبئة العامة التي تستهدف تحقيق التحام اجتماعي مستقل، ولم يكن الداعي إلى الطريقة حديثا بحاجة إلى التبشير بها أو اللجوء إلى الكرامات كما كان يفعل المرابطون سابقا، فالبعد السياسي والتاريخي الجديد ملائم للتمركز، وتجميع القبائل وتدعيم الروابط تحت لواء جامع ومدعم بتنامي المشاعر المعادية للعثمانيين. وإن انهيار الكونفدراليات المرابطية، وحماس الطرق الصوفية الذي ميّز العالم الإسلامي في نهاية القرن 18م، ليعبر عن مظاهر رفض جديدة، ويفتح المجال بعد الإحباط أمام آمال جديدة.

وتمكنت الحركة الصوفية بشكلها الجديد من تنمية إمكانيات سياسية في شكل مظهر احتجاجي قد يصل في بعض الأحيان إلى الثورة. ومن أجل ذلك اندمجت مناطق كاملة في هذه الطرق الجديدة تحت قيادة شيوخ برعين،

تمكنوا من تجميع الرموز وتأطير المجال العام، ومحاصرة الجهات الأربعة للإيالة، بالإضافة إلى الرباطات، وإلحاق الزوايا المرابطية بمراكز التنوير الجديدة، وتخليص الشيوخ والمرابطين وانتزاع القبيلة تلو الأخرى من المخزن. ومن ثم أصبح المرابطون الذين لم تكن سلطتهم تتعدى حدود قبيلتهم، تابعين إلى الطرق، ومؤتمرين بأوامرها وعاملين لصالحها، وتحول الكثير منهم وخاصة ذوو النسب الشريف كرمز للقداسة إلى مقدّمين للطريقة. وقد تبنت الطرق الصوفية، وخاصة الرحمانية والدردقاوية سياسة الاسترجاع، فكان أغلب المقدّمين التابعين للطريقة الرحمانية مثلاً ذوي نسب شريف أو مرابطين وشيوخ قبائل سابقين.⁽²⁵⁾

كما كان المقدّمون أيضاً عناصر مرابطية فقدت سيادتها، أو فروع أولياء لم يسعفهم الحظ والوقت لتحقيق طموحاتهم كشيوخ قبائل، ومن ثم كانت صفة المقدّم وسيلة لاسترداد التأثير الضائع أو المأمول على الأتباع، وسعت بعض القبائل المقيمة بالمناطق النائية والفقيرة إلى تلقين أصول الطريقة من أجل تحقيق شهرة أكبر وتلقي دعم الشعب، بينما انضمت قبائل قاطنة بالقرب من أرض البايك إلى الطرق من أجل التحرر من الضغط المفروض عليها من طرفه. وبذلك تكون العناصر المرابطية قد ساهمت لسبب أو لآخر في الازدهار المباشر للطريقة الصوفية المتبناة، ولعل إدماج المرابطين يتناسب مع الذهنية الجامعة والارتقائية للحركة في حد ذاتها، كما تعتبر مسألة التفتح على الجماهير مهمة بالنسبة لشيوخ الصوفية الجدد المؤسسين للحركة في شكلها الجديد، إضافة إلى توظيفهم لأي رمز جامع واثار من أجل تحقيق تأطير أكبر، وإدماج عامة الناس في هذه الحركة. وحاول الإخوان براءة إيصال الحركة إلى ذروتها عن طريق تعبئة الجماهير من خلال توزيعها إلى مجموعات معارضة معتقدة اعتقاداً راسخاً في المبادئ الصوفية، ومستعدة للتضحية من أجلها، وفي أقل من ربع قرن، تمكن الإخوان من نسج الكثير من الشبكات الطرقية التي فشلت الإقطاعيات الصوفية في حفظ تماسكها في السابق، مما أدى إلى التأثير على العقول والمجالات الجغرافية بشكل عام. وحتى نعطي فكرة عامة عن تجربة انتشار تأثير الطرق الصوفية، يلزمنا البحث في مدى تأثيرها على الجماهير، وانطلاقاً من هذا نلاحظ أن ضعفها وتلاشيها من جهة إلى أخرى، قد حد من نفاذها وجعله غير متماسك وأظهر تفاوتاً واضحاً في التأثير. وبغض النظر عن الإحصاء الذي قامت به الإدارة الاستعمارية الفرنسية للحركات الصوفية، يمكننا القول أن ثمة أسباب اجتماعية وثقافية وسياسية مثل محاذاة المراكز الصوفية المغربية، قد أدت إلى كثرة الطرق في بابلك الغرب كالدردقاوية والفرع الجزائري للقادرية عكس بابلك الشرق. ونفس النجاح حققته الطرق في منطقة القبائل التي يصعب اختراقها وخاصة جرجرة الملائمة أكثر للتصوف التقليدي، والمناوئة بشدة للوجود العثماني. أما

الصحراء التي ظلت لمدة طويلة مجالا لحركة التبشير الصوفية، فقد اخترقتها التيجانية والرحمانية التي يظهر أنها أكبر طريقة من حيث عدد الأتباع.⁽²⁶⁾

ونظرا لنقص الإحصائيات الخاصة بالطرق الصوفية وأتباعها لتلك الفترة، والتي تعود إلى الطابع الصوفي للتجمعات الطرقية وإلى كتمان أتباعها والتطور السريع لعدددهم، يصعب علينا تحديد العدد الدقيق للمتمسكين إليها. كما لا تخلو إحصائيات الإدارة الفرنسية من الشكوك ذلك أن هذه التجمعات الطرقية غير نفوذة وترفض الإعلان عن عدد أتباعها أو إفشاء أسرارهم، ومن ثم فالتقسيمات والأرقام التي أعلن عنها المحققون العسكريون الفرنسيون هي عبارة عن احتمالات تقريبية يجب التعامل معها بكل تحفظ. كما أن بعض الطرق كالرحمانية والقادرية، خاضتا المقاومة الوطنية ضد الفرنسيين، مما يجعل أمر تعاونها معهم مستبعدا فيما يتعلق بتسريب معلومات سرية عن الطريقتين. وتذكر الإحصائيات المشار إليها آنفا أن عدد أتباع الرحمانية يقارب الثلاثين ألف شخص منهم حوالي سبعة آلاف ببائلك الشرق والبقية بالجزائر. أما أتباع التيجانية فيقارب عددهم ثلاثة وعشرين ألف شخص منهم سبعة عشر ألفا بالجزائر، وثلاثمائة فقط ببائلك الغرب. في الوقت الذي لم يتعد عدد أتباع الحنصالية 1234 شخص منهم 62 شخص ببائلك الغرب. ويظهر التناقض الصارخ في الإحصائيات المتعلقة بالدقراوية التي بلغ عدد أتباعها حوالي 18 ألفا بالجزائر و897 شخص ببائلك الغرب الذي يعتبر كما نعلم مقرا لإحدى الزاويتين الأم للجزائر والتي تستلهم قوتها من وزان مباشرة. أما في بايلك الشرق فليس لها أتباع، مع العلم أن المؤسسة الثانية للطريقة توجد به وهي التي ستشرف على الانتفاضات المعادية للأتراك العثمانيين في بداية القرن 19 م.⁽²⁷⁾

وتجدر الإشارة إلى أن عظمة وازدهار الحركة الطرقية لم تكن على عدد أتباعها، ولكنها تعتمد على أخلاقيتها ودهماتيتها، وحيويتها وتنظيمها وبراعتها، وكذلك على الظروف المواتية عالميا لتضاعف هذه الحركات الوطنية وتجمع دول المدن. ويمكن القول بصفة مطلقة أن رؤساء هذه الطرق الإسلامية يتصفون بالأخلاق والفضيلة، وهي الأمور التي لا نجدها عند الأولياء والمرابطين غير الأعضاء في الطرق⁽²⁸⁾. وعلى عكس المرابطين الذين انحصرت علاقتهم بالناس عند الانتهاء السلالي، وحددت بظاهرة البركة، فإن الإخوان بفعل تأثيرهم النسكي، ومعرفتهم الصوفية ورقتهم، قد ملكوا العقول عن طريق صبغها بالذكر الذي يقتضي إعادة اسم الشيخ مرات عديدة في اليوم، مما سيرسخ عند عامة الناس التواقين إلى الآخرة، والحالمين بتحقيق الامتيازات الدنيوية للبركة والوصول إلى الجنة، عبادة شخصية الشيخ والانضمام إلى طريقته. وسمي أتباع هذه الطرق بالإخوان وليس الموردين كما هو الشأن في المشرق، ويعود ذلك إلى أسباب أخلاقية تتعلق بالكرامة المميزة للأتباع وميولهم المساواتية، ويمكن في هذه الحالة لأبسط

الإخوان الذين ينتسبون إلى سلالات أو أصول دينية شريفة، التمكن بفضل شيوخ الطريقة من تحقيق سلطة دينية مساوية، وفي بعض الأحيان متفوقة على سلطة المرابطين والأولياء.⁽²⁹⁾

واستطاع الإخوان بفضل مثابرتهم وهيبته وتنظيمهم، تحويل الزوايا إلى مراكز إدارية حقيقية للدعاية وضم الناس، وهي المراكز التي لم تتوقف عن احتلال الساحة السياسية ومنافسة سلطة البايلك، بل لقد ساهموا في الأعمال الخيرية والتضامن مع الجماهير، فخلال انتشار الأمراض في سنة 1770 م، قامت الزاوية الرحمانية لإغيل علي بمنطقة القبائل بتزويد السكان بالحبوب من مطايرها الخاصة، وقدمت زاوية منعة الرحمانية أيضا البذور إلى الفلاحين أثناء فترات الجفاف⁽³⁰⁾. ولم تجد فتاوى العلماء الذين اعتبروا التنظيمات الإخوانية بدعة نفعاً، ولا غير الأولياء والمرابطين خاصة المقيمين منهم في المدن والمتواطئين الضالعين في أمور الدولة، من إلحاق الضرر بحدة اندفاع وانتشار هذه الجمعيات، أو محو وإعاقة هذا المد الطرقي، بل لقد خشيت السلطة وحلفاؤها هذا المد. وفي 1789 م سعى المفتي المالكي الحاج بن يمين المفسر الكبير، والمشهور بفضائله ومعارفة الدينية إلى استصدار فتوى من مجلس علماء الجزائر تعتبر الطريقة الرحمانية بدعة وبعيدة عن أصول السنة النبوية، إلا أن الداوي حسان الذي كان يدرك قوة هذا العالم، وانتشار شعبيته بدار السلطان ومنطقة القبائل، وخوفاً من اندلاع حركة تمردية، أجبر المجلس الخاضع لتأثيره على الاعتراف بسلطة سيدي عبد الرحمن وجعل الفتوى في صالحه⁽³¹⁾.

وتحولت الجبال الوعرة لجرجرة بعد وفاة الشيخ سنة 1793 م إلى مزار كبير يجتمع فيه الأتباع بين الفترة والأخرى بآيت إسماعيل، مما أقلق السلطات العثمانية التي خشيت أن يتدعم هذا التجمع الكبير للأتباع المحيين للحرب، مما جعلها تفكر في حراسة الإخوان واللجوء إلى الحيلة. وهكذا لاحظ الزائرون القادمون من مدينة الجزائر إلى الزاوية الرحمانية بآيت إسماعيل خلو قبر شيخهم من جثته التي أخرجها عمال الداوي الذين أشاعوا أنها موجودة بعاصمة الإيالة فأصيب أوفياء الشيخ بالذهول، وقرروا الانتقال جماعياً إلى الحامة حيث توجد الجثة، وهناك لاحظوا باندھاش كبير أنها لشيخهم. وفسر العامة ذلك بازدواجية الشيخ، الذي ظهر بالمكانين لإرضاء أتباعه من الإخوان، واعتبرت تلك كرامة من كرامات صاحب الطريقة. وذاع صيت إخوان مدينة الجزائر في كل مكان، حتى خشيتهم بعض الدول كمصر التي منع باشواتها قوافل حجاج الطريقة الدرقاوية من المرور عبر أراضيها باتجاه أرض الحجاز.⁽³²⁾

وفي ظل هذه الأوضاع التي ميزتها كثرة الحواجز والعوائق، يجدر بنا التعرض لتأثير الحركة الطرقية على العلاقات بين الأتراك العثمانيين والدولة العلوية التي يعتمد سلاطينها على الأفعال الدينية في إثبات شرعيتهم، وينحدرون من

سلالة الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن ثمّ يعتبرون العثمانيين ألد أعدائهم، ومجرد مسيحيين مرتدين، وليسوا أبطالاً مسلمين.⁽³³⁾ فاعتبر الأتراك العثمانيون ذلك انعدام اعتراف بهم وإهانة إلى الخليفة باسطنبول، وبالتالي ظلت علاقاتهم متسمة بالعداوة والصراع. وكان طبيعياً أن المقموعين من الطبقة الدينية بالمملكة العلوية وخاصة منهم المرابطون والطرق المغربية، يلجأون إلى الإيالة ويستغلون سياسياً، مثلما هو الشأن بالنسبة لديلة الذي فرّ من مولاي الرشيد في 1676م ولجأ إلى تلمسان. ويعتقد أن العثمانيين هم الذين حضوا ديلة على الثورة ضد الملوك العلويين، وأن الرافضين من الطرق الجزائرية لسياسات الدايات كالتيجانيين قد لجأوا إلى المغرب الأقصى، ووجدوا منه الدعم المطلق لحركتهم⁽³⁴⁾. ونستنتج من هذا عدم قدرة المتحاربين على مواجهة الطرق الصوفية، وقيامهم في بعض الأحيان بإذكاء الكراهية بينهم، ولم يمنع ذلك من اعتبار الدرقاوية حصناً مدافعاً عن سياسة السلاطين العلويين⁽³⁵⁾. ولعلّ قوة الحركة الصوفية تكمن في صلابتها، وظهور العديد من الأعلام المتصوفة الذين سعت السلطة العثمانية في الجزائر إلى كسب ودهم، واستغلالهم من أجل استمرار الحكم العثماني.

4. ثورات الطرق الصوفية وانعكاساتها على الإيالة:

على الرغم من الإحساس المشترك والتضامن والتحالف الذي أشرنا إليه، فقد اندلعت ثورات عديدة ضد الأتراك العثمانيين، وقد تباينت وسائلها وغاياتها، فمنها ما كان دينياً، ومنها ما كان اقتصادياً، بل إنّ هناك ثورات قادها مغامرون بحثوا عن الجاه والسمعة، كما تميزت الثورات بطول مدتها أحياناً وقصرها في أحيان أخرى، إلى جانب ضيق واتساع العمليات الثورية في البايلاكات الثلاثة. وغالباً ما كانت ثورات الطرق الصوفية متعددة الدوافع والغايات. وذكرنا أنّ ردّ فعل الجزائريين تجاه العثمانيين قد بدأ منذ القرن السادس عشر، خاصة عندما مسّ المنجدون مصالح الأمراء والولاة، في حين لم يكن العلماء والمرابطون ضد هذا التواجد في بدايته، كما أنّ التحالف الذي وقع بين العثمانيين ورجال الدين قد أضر بمصالح هؤلاء الأمراء ورجال السياسة من أعيان وأشراف. ونظراً لظروف محلية اضطر العثمانيون إلى الاعتراف ببعض الكيانات مقابل دفع الضرائب، واعتبرت عملية الامتناع عن دفعها علامة تمرد وثورة، واستفادت القبائل ومجموعة من العلماء والمرابطين من إعفاء ضريبي جراء تحالفها مع العثمانيين، وعلى عكس ذلك عومل المعارضون معاملة قاسية، ووصفت بالرعية، وكأني بالعثمانيين قد طبقوا على الجزائر قواعد الحرب الإسلامية⁽³⁶⁾.

وقاد الثورات الدينية مرابطون وطرق صوفية مختلفة مثل الرحمانية والتيجانية، وفيما يلي نتطرق لثورة التيجانيين.

- ثورة الطريقة التيجانية:

وقفت التيجانية التي كان مركزها في عين ماضي ضد العثمانيين، وثار أتباعها ضد الأتراك مباشرة بعد انتهاء ثورة الدرقاويين، وكانت الثورة التيجانية بزعامة محمد الكبير الإبن الأكبر للشيخ أحمد التيجاني⁽³⁷⁾. وتوزع أتباع الطريقة بين الصحراء والهضاب، وانتشرت مراكزهم وزواياهم على طول بلاد المغرب انطلاقاً من مدينة فاس إلى تلمسان، وصولاً إلى الأراضي التونسية مروراً بالواحات والقصور. وبسبب الدور الاقتصادي المتميز الذي لعبه التيجانيون في تحكمهم في التجارة مع إفريقيا السوداء، تقرب إليهم المغاربة والتونسيون والمشيخات الصحراوية، وحاولت التقرب منهم وكسب ثقة شيوخهم⁽³⁸⁾. وكان أحمد التيجاني قد تعرض إلى ضغوطات باي وهران محمد بن عثمان، وتحت تهديداته المتواصلة أسرع الشيخ بالانتقال إلى فاس، واستأذن سلطان المغرب سليمان الذي رحب به وأكرم ضيافته وسعى إلى استعماله كأداة ضغط ضد الأتراك. وقام الباي محمد الكبير بحملة عسكرية بالجنوب الصحراوي حيث أغار على قرية عين ماضي ومدينة الأغواط معاقل الطريقة التيجانية سنة 1787م، وأرغم شيوخها على الخضوع إلى سلطة البايليك⁽³⁹⁾. كما فشل باي التيطري مصطفى بومزراق في الاستيلاء على مقر التيجانية في عين ماضي سنة 1822م⁽⁴⁰⁾.

وفي سنة 1825م حاصرت قوات الباي مصطفى بومزراق قرية عين ماضي لأكثر من شهر، وانتهى الحصار بإبرام صلح بين الطرفين تم بموجبه تقديم 2000 ريال بوجو، وغرامة سنوية مقدارها 500 ريال بوجو. وحاول أحمد التيجاني استمالة القبائل في المناطق الغربية مثل بني عامر، وبني شقران، والبرجية، والغرابية، والزماله والدواير، إلا أنها رفضت مبايعته، ولا ريب أن الذي شجع التيجانية في إعلان الثورة على الأتراك هي قبائل بني هاشم، وهكذا زحف الجيش التيجاني المقدّر بستائة مقاتل نحو معسكر سنة 1827م، وجرت معركة بين التيجانيين والجيش العثماني بأرض أولاد دحو بمعسكر. لكن التيجانيين فشلوا في الاستيلاء على معسكر، وفي هذا السياق يصف الزّهار نهاية التيجانيين المأسوية على يد الأتراك فيقول: "فقطعوا رؤوسهم وفرقوها على المدن لكي يعتبر الناس، وبعثوا برأس الحاج محمد، ومعه بعض الرؤوس الأخرى للجزائر وأتوا بسفينة وبعض الحاجات التي كانت عليه وجعلوا رأس ولد التيجاني في عمود وصلبوه قبالة الباب الجديد وعلقوا الرؤوس الأخرى حوله ولكثرة ما كان الأتراك يخافونه بعثوا للسلطان محمود الثاني يبشرونه بقتله"⁽⁴¹⁾.

ولعلّ الفشل الذي منيت به الطريقة التيجانية في أول معركة لها مع القوات العثمانية يرجع إلى عدم تجاوب الناس مع الطريقة بمثل ما حظيت به الطريقة الدرقاوية، بالإضافة إلى السياسة التركية المبنية على الإرهاب والتسلط ضد

القبائل المتعاونة مع الثوار، ولذلك تحول النشاط الطرقي للتيجانية نحو الصحراء وبلاد السودان. وكان الشيخ أحمد التيجاني دائم التنقل بين مدن عين ماضي، وتلمسان وفاس، الأمر الذي أثار مخاوف العثمانيين، الذين اعتقدوا أن التيجانية يدبرون لمؤامرة ضدهم بالتعاون مع السلطان العلوي سليمان، فقام الباي محمد الكبير بغارة على قرية عين ماضي ومدينة الأغواط والجنوب الصحراوي، حيث يكثر نفوذ الطريقة التيجانية كما ذكرنا آنفاً، وتمكن الباي من إرغام سكان المنطقة على الاعتراف بالسيادة العثمانية ودفع الغرامة المالية المفروضة في سنة 1787م⁽⁴²⁾.

ويحق لنا الآن التساؤل عن آثار وانعكاسات هذه الثورات على المجتمع والسلطة العثمانية بالجزائر؟ لا شك أن تعدد هذه الثورات قد أكسب الجزائريين وعياً جماعياً، بفعل انتشار الشعور بظلم الأتراك، شعور أدى إلى قول بعضهم: "نذهب عند النصاري ولا نجاور الترك، فتجتمع علينا الجوع والقتل"⁽⁴³⁾. ومن الواضح أن أغلب هذه الثورات كانت تفتقد إلى الوحدة والتنسيق فيما بينها، الأمر الذي حال دون انتشارها انتشاراً يغطي كامل الإيالة، ويجعل الرعاية تتجاوب معها، فأغلب هذه الثورات تميزت بخاصية الإقليمية والجهوية، مما سهل للبايات والدايات محاصرتها والقضاء عليها. ويلاحظ على هذه الثورات التي ميزت القرن 18م والقرن الذي يليه الاختلاف الجوهري بين زعمائها واختلاف انتماءاتهم الاجتماعية والمذهبية. وقد سلك العثمانيون سياسة القمع والبطش تجاه الثوار، مما مكنهم من عزلهم عن الشعب، وأضافوا إلى هذه السياسة سياسة أخرى بنيت على الإرهاب والإغراء واستعمال قبائل المخزن.

ثم اندلعت الثورات الطرقية في القرن الثامن عشر، والتي سبقتها ثورات أخرى خلال القرنين السابقين بصورة محلية، تعبيراً عن رفض السياسة الإصلاحية العثمانية، وتراجع هيبة الجزائر وقوتها من جراء تضائل مداخلها البحرية وتحالف القوى الأوروبية ضدها.

الهوامش:

¹Rinn (L), Marabouts et Khouans : étude sur l'Islam en Algérie, Alger, A.Jourdan, 1884 ,p.158.

²Brosselard (Ch.), Les khouans : de la constitution des ordres religieux musulmans en Algérie, Imprimerie de A. Bourget, 1952, p. 7.

³Coppolani(X), Depont (O), Les confréries religieuses musulmanes ,Alger, A.jourdan,1897 ,p.172.

⁴ Rinn (L), op. cit., p. 72.

⁵ Ibid, pp. 172-208.

⁶Encyclopédie de l'Islam, nouvelle édition, Paris, 1993, T. X, p.339.

⁷مياشي، إبراهيم، "مساهمة القادرية في تأطير الثورات الشعبية"، مجلة دراسات في العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد 4، 2003-2004.

⁸ Cour (A) Etablissement des dynasties des chérifs au Maroc et leur rivalité avec les Turcs de la régence à Alger (1509-1830), Paris, Bouché ne, 2004, pp. 96-97.

⁹ سعيد، مراد، الفرق والجماعات الدينية في الوطن العربي قديماً وحديثاً، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، 1997، ص. 533-534.

¹⁰ سعد الله، أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1998، ج1، 1998، ص. 463.

¹¹ Cour (A). , Etablissement des dynasties des cherifs au Maroc et leurs rivalités avec les Turcs d'Alger, Paris, 1904, p. 14.

¹² Trumelet (CI), Algérie légendaire, Paris, ed, Didier et Cie, 1881, pp. 126, 158-159.

¹³ بروكلمان، كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، 1968، ص. 481.

¹⁴ Rinn (L), op. cit., p 290.

¹⁵ سعيد، مراد، المرجع السابق، ص. 587.

¹⁶ Rinn (L), op. cit., p. 172.

¹⁷ ترمينجهام، سبنسر، الفرق الصوفية في الإسلام، ترجمة وتعليق عبد القادر البحرأوي، دار النهضة العربية، بيروت، 1997، ص. 363.

¹⁸ بن أبي دينار، محمد، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، دار المسيرة، بيروت، ص. 184؛ بلغيث محمد، "الطريقة الشبابة في تونس والجزائر (محاولة لرسم مسار الحركة خلال القرنين 16 و 17 الميلاديين)"، المجلة التاريخية المغاربية، العدد 114، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان، تونس، يناير 2004، ص. 46.

¹⁹ بلغيث، محمد، "المرجع السابق، ص. 42-43، 45-47.

²⁰ Rinn (L), op. cit., pp. 271-272.

²¹ ابن عسكرو، دوحه الناشر، ج12، ضمن الأرشيف المغربي، الرباط، 1913، ص. 125.

²² Rinn (L), op. cit., p. 275 ; Doute (E), Les Aissaoua de Tlemcen, Châlons-sur-Marne, imprimerie Martin Frères, 1900, pp. 23-24.

²³ Ibid., pp 277, 341، هويدي، يحيى، تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الإفريقية، ج1: الشمال الإفريقي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1965، ص. 363.

²⁴ المدني، أحمد توفيق، كتاب الجزائر، ش. و. ن. ت، الجزائر، 1980، ص. 378.

²⁵ Delpêch (A), « Un diplôme de Mokadem de la confrérie religieuse rahmanya », R.Af., 1874, p. 421.

²⁶ Filali (K), L'Algérie mystique des marabouts fondateurs aux khwân insurgés XV^e/XIX^e siècles, Publisud, 2002 . 155-156.

²⁷ Archives d'outre mer, Aix-en-Provence, 16 H2.

²⁸ Rinn (L), Marabouts..., op.cit., p.73.

²⁹ Hanneteaux, Le Tournaux, La Kabylie et les coutumes Kabyles, T.1., Alger, 1893, p.104.

³⁰ Ibid., p. 86.

³¹ Rinn (L), op.cit., p. 454.

³² De Neveux (E), Les khouans, ordres religieux chez les musulmans d'Algérie, Alger, A.Jourdan, 1843, pp. 90-91, 139.

³³ Cour (A), op.cit., p. 385.

³⁴ Hammoudi (A), « Une zawia marocaine », A.S.E., Paris, 1980, p.623.

³⁵ Valensi (L), Le Maghreb avant la prise d'Alger, Paris, Flammarion, 1969, p.84.

³⁶ سعد الله، أبو القاسم، تاريخ الجزائر... المرجع السابق، ص. 200-210.

³⁷ Arnaud (L), « Histoire de l'ouali sidi Ahmed etidjini », R. Af., n° 5, 1861, pp. 468-474.

³⁸ Emerit (M), « Mémoires d'Achmed Bey », R.Af., n° 93, 1949, p. 85.

³⁹ ابن هطال، أحمد، رحلة محمد الكبير إلى الجنوب الجزائري الصحراوي، تحقيق محمد بن عبد الكريم، القاهرة، عالم الكتب، 1969، ص.

1-5-76.

⁴⁰ Rinn (L), op. cit., p. 199.

⁴¹ الزهار، مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار، نقيب أشرف الجزائر، تحقيق أحمد توفيق المدني، الجزائر، ش.و.ن.ت، 1974، ص. 160.

⁴² ابن هطال، أحمد، المصدر السابق، ص. 75-76.

⁴³ الناصري، أبو العباس أحمد، الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق جعفر ومحمد الناصري، دار الكتب، الدار البيضاء،

1954-1956، ج، ص. 110-111.